الفصل الأول

اصعدِ المركبَ

«لنكن رحماء فيما بيننا، وليؤدِّ كلٌّ منّا واجبَه تجاه أخيه. فإننا إذا تمثَّلنا تلك الدروس، غدا هذا العالَمُ أفضلَ حالاً».

موري شفارتز[1]

لقد رأيتُ من الصُّوَر ما رأيته أنت: رأيتُ ـ ولاسيما على شاشة التلفاز ـ سقوفاً لمنازل لا تكاد تظهر فوق سطح المياه، وجُثثاً طافيةً تجرفها الأنهار، وملعب السوبردوم يغصُّ بالناس والنفايات، وجموعاً من البشر تحاول الفِرار من الطوفان والملاجئ. وعاينتُ جُنداً ورجالَ سياسةٍ وصحافة وأفراداً من السكان المحليِّين، ومن أبناء الطريق الذين يمارسون السلبَ والنهب في فورةٍ عارمةٍ من الاهتياج.

وبعد أيامٍ من إعصار كاترينا (أيلول (سبتمبر) 2005)، انتقلتُ إلى نيو أورليانز، فبدت لي أعمدةُ الهواتف بعد أن عاثَ فيها الإعصار كأصابع مشوَّهة، وعاينتُ رؤوسَ الأشجار وقد بُترت، والدعامات الفولاذية لبُنىً غير مكتملةٍ وقد انثنت كأنها ما زالت تقاوم الريح.

كنتُ في سيارةٍ تضمُّ مجموعةً من عمّال الإغاثة، نحاول توجيه شحنات الأدوية وعيادات الإسعاف المتنقلة إلى حيث تمسُّ الحاجةُ إليها. ولم تكن السياراتُ القليلةُ الأخرى على الطريق إلا سيارات طوارئ أو مركبات عسكرية مدجَّجة بالسلاح. لكن الحركة الحقيقية

كانت تنشط في الجوّ بمئاتٍ من الطائرات المروحية تحوم فوق الرؤوس لا تنثني. لم يكن ثمة تيارٌ كهربائي، وقد خلت المدينةُ من سكانها، فكان الشعورُ العام للناظر وكأن نهاية العالَم قد حلَّت.

وفي الطريق المؤدّي إلى مستشفى ويست جيفرسن ـ أحد المستشفيات الثلاثة العاملة آنذاك في الأبرشية ـ ضللنا الطريق، ولم تسعفنا الخرائطُ التي بين أيدينا، فالمسالك قد انطمست معالِمُها، وحيثما توجَّهنا ردَّنا حرَّاسُ نقاط التفتيش عن وجهنا. ولما انتهينا إلى أعلى تلَّةٍ في منطقة Veterans Boulevard بادرَنا عددٌ من رجال الشرطة يحملون أسلحةً آلية وأشاروا لنا ملوِّحين بالهبوط. ولما خرجنا ذهلنا عن أنفسنا ولم نكد نصدِّق ما تراه عيوننا من خلف زجاج السيارة: لم تكن ثمة معالم للطريق أمامنا؛ فالمنطقة كلُّها غارقةٌ في المياه. ووجدنا زوارق الإنقاذ تخِفُّ إلى نقل الناس من منازلهم المنكوبة إلى مواضع جافةٍ وأكثر أمناً. كان المنقِذون متيقِّنين من أن عدداً من الناجين ما زالوا عالقين في المياه، وقالوا إنهم سيتدبَّرون أمر الجثث فيما بعد.

اقتربت امرأةٌ مسنَّةٌ من المنقذين الذين يميِّزهم زيٌّ موحَّد وسألتْهم:

«إنكم تنقلون الناس من هنا إلى منازلهم ليعاينوها، أليس كذلك؟»

«لا، سنفعل ذلك في غضون أسابيع. أما الآن فنحن بصدد نقل الناس إلى الخارج لا إلى الداخل».

فالتفتتْ إليَّ تناشدني: «لولا بلَّغتَني منْزلي كي أطمئن عليه؟ أريد أن أرى ما بقي فيه قبل أن أغادره إلى الأبد».

نظرتُ من حولي فرأيتُ رجلاً نحيفاً مفتول الجسم يخوض في الماء إلى وسطه وتبدو على وجهه أمارات المشقة، وسيجارةٌ في فمه وأخرى خلف كلٍّ من أذنيه. كان يحاول تحرير زورق صيدٍ له من غصن شجرة. ناديتُه:

«هل لك إلى إبلاغ هذه السيدة منْزلها؟»

قال متوجِّهاً إليها: «ما عنوانك؟»

أخبرته بالعنوان.

«نحن جيران إذن! اصعدي المركب».

نظرت السيدةُ في الماء. كان لونه مختلفاً عن لونه في الطبيعة، وقد أفسدته جيف الحيوانات الطافية والنفايات والأنقاض. كانت مياهاً نتنةً وسامَّة؛ كلُّ ما فيها يوحي بالمرض والموت.

قال الفتى النحيف المفتول الجسم: «ابقي حيث أنتِ». خرج من الماء وحملها إلى المركب وأجلسها فيه برفق، ثم عاد إلى الخروج ليحمل ابنة أخيها ذات الستين عاماً، ويضعها بإزاء عمّتها. ثم التفتَ إليَّ قائلاً:

«أراك ما زلتَ هناك! إذا أردتَ الذهاب فاركب معنا».

خوَّضتُ الماءَ، محاولاً تذكُّرَ آخرِ مرةٍ نقلتُ فيها أدويةً لعلاج مئات الأمراض التي أراني أحسُّ بها الآن تنفذ إلى جسدي عبر بنطال الجينْز الأزرق الذي ارتديه.

إن ما فعله هذا الرجل هو أنَّه قدَّم خدمةً إلى جارته، كما فعل الكثيرون إبان هذه المحنة. وَجَدَ امرأةً في حاجةٍ إلى ركوب، وهو يملك زورقاً، فأسعفها بحاجتها.

بدأنا الرحلة، وجُزْنا الكنيسةَ التي كانت تتردَّد إليها هذه السيدة، وما كان يوماً مدرسةً لأطفالها. ومررنا بمتجرٍ في الجوار طافَ حوله الربّانُ بضعَ دقائق، واستعمل شبكةً التقطَ فيها صناديقَ من علب السجائر العائمة على السطوح، وقال مازحاً:

«أرجو ألا أوصف الآن بأني سلاّب».

أوقف الربانُ المحرِّك قبل عدة منازل من مقصدنا، واستمرَّ المركبُ بالتقدُّم رويداً بفعل الدفع الذاتي نحو وجهتنا قبل أن يرتطم مقدَّمُ المركب ارتطاماً خفيفاً بميزابٍ لتصريف المياه بات بالطبع عديم الفائدة في هذا المنْزل الذي وصلنا إليه، والذي كانت السيدةُ التي معنا قد عاشت فيه تسعاً وسبعين سنةً من عمرها. نظرت السيدةُ إلى الثلث العلوي من منْزلها، وهو كلُّ ما كان ظاهراً منه، وقالت: «ها هي شجرة السنديان مازالت تبدو سليمة». يا لتلك الشجرة كم تحمل من ذكريات طفولتها! وفي جوٍّ من الصمت المطبق راحت تتأمل «المنْزل» عدة دقائق كما نتأمل شواهدَ أضرحة موتانا عند زيارة المقابر.

سألتُها: «هل ثمة شيء تتمنَّين لو استطعتِ استنقاذه؟»

أجابت: «لقد خرجتُ بحياتي، وهذا يكفي. ليس ثمة شيءٌ في البيت لا يمكن تعويضه».

ثم أعملَ الرُّبانُ محرّكَ المركب معلناً: «علينا أن نغادر قبل أن تنقطع بنا السُّبُل مع حلول الظلام».

وفي رحلة العودة تعطَّل محرِّكُ الزورق هنيهةً باصطدامه بمركبةٍ غارقةٍ في المياه.

وعندما نزلنا إلى اليابسة سألتُ السيدةَ هل استبكاها مصابُها بعدُ؟ أجابت: «لم يعتَرِني شيءٌ من هذا»، ثم التفتتْ تنظر إليَّ في وجهي وقالت: «أشعر كأنني مِتُّ ثم بُعِثتُ من جديد. ما مضى من حياتي أمسى هناك في تلك المياه. انتهى الأمر الآن، وعليَّ أن أستأنف المسير».

والحقيقة أن الأعاصير الثلاثة التي ضربت الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى في سنة 2005 ـ وهي أعاصير كاترينا، وريتا، ووِيلما ـ كَشَفَتْ مواطنَ خللٍ في أسلوب الاستجابة للكوارث. فقد طِرْتُ إلى قاعدةٍ عسكريةٍ في نيو أورليانز، وفوجئتُ بمخاوف كانت تستولي على رجال إطفاء الحرائق هناك تتمثَّل في عجزهم عن الاتصال بخدمات الطوارئ الأخرى، ومن ثم فهم يجهلون المواقع التي تمسُّ فيها الحاجةُ إلى الغوث.

تحدثتُ كذلك إلى مديري مراكز عمليات الطوارئ، وأعلموني بأنه يتعذَّر عليهم الاتصال بالحكومات المحلّية أو حكومات الولايات لإبلاغهم بحاجاتهم. وأقبل عليَّ أحدُ العاملين في الصليب الأحمر ومعه شاحنةٌ محمَّلةٌ بمئات صناديق الأغذية.

قال لي وعَلامات الإحباط باديةٌ على وجهه: «معي كلُّ هذه الأغذية، لكنني لا أعرف إلى أين أتوجَّه بها؛ لا أعرف مَنْ يحتاج إليها».

ثم سلَّمني عشرات العلب التي تحتوي على وجبات جاهزة لتوزيعها على مَنْ أرى أنه يحتاج إليها. وبالفعل وجدتُ بعد أن قطعتُ عدة أميال مبنىً تقطَّعت بساكنيه الأسباب منذ نزول الكارثة، فحُرِموا من الغذاء ومياه الشرب والكهرباء وسائر المرافق. ونَفِدَ ما معي في غضون دقائق.

وإذا كانت الأعاصيرُ قد كشفت عن مواطن ضعفٍ في الخدمات الحكومية ومنظومات الاتصال والإدارة وسدود التحكُّم في الفيضانات، فإنها أظهرت أيضاً شيئاً آخر على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. فعندما رأى الناسُ في شتى بقاع العالم وسمعوا بما حلَّ من الأعاصير، ما كان منهم إلا أن هَبُّوا من فورهم لنجدة المنكوبين. فكنتَ ترى المتطوِّعين في مكان الحدث قبل أيامٍ من وصول المؤسسات الحكومية وانتشارها. لم يكن أولئك الذين حضروا للنجدة منظَّمين؛ لكنهم حضروا للخدمة وكفى.

بدأت قوافلُ الشاحنات المستأجَرة المحمَّلة بالأغذية والماء والخيام والمولِّدات الكهربائية وغير ذلك من الإمدادات بالتوارُد من ولاياتٍ تبعد آلافَ الأميال. وتولّى بعضُ الأفراد استئجار طائراتٍ على نفقتهم الخاصة لنقل الناس من ملعب نيو أورليانز إلى مساكن آمنة. وتوافَدَ أطباءٌ وممرِّضون وممرِّضات وباشروا عملَهم الإنسانيَّ في الحال غير

ناظرين وصولَ الإذن الرسميِّ لهم بذلك. كذلك أقلَّت حافلاتُ الجامعات ومركباتُها طلاّبَها ميمِّمةً صوبَ الجنوب، في حين بدأت المدارسُ والمؤسساتُ المجاورةُ حملةً لجمع التبرُّعات في أنحاء البلاد، وفَتَحت الكنائسُ والشركاتُ في المناطق المصابة أبوابَها لتوفير المأوى المناسب للمنكوبين ولعمال الإغاثة على السواء.

على أن أفعالاً مستنكَرةً وقعت في مقابل ذلك أيضاً، ولا حبَّذا تلك المشاهد، لكنها تظلُّ جزءاً من الطبيعة الإنسانية وتتمثَّل في أحداث عنفٍ وعمليات سلبٍ ونهبٍ واستغلالٍ لبعض مَنْ لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

ومع ذلك فإن الجانبَ الآخر المشرقَ من الطبيعة الإنسانية، الذي يمثِّله من الناس أولئك المتأهِّبون للمساعدة بتقديم جزءٍ من أوقاتهم ومواردهم وخبراتهم، والمندفعون إلى العمل الفوري، أظهرَ لي أن خدمة الآخرين منعكَسٌ تلقائي لا يختلف عن أيِّ مظهرٍ من مظاهر سلوكنا الأخرى. إن ما رأيتُه عياناً بعد الإعصار أكَّد لي ما ذكرتُه في المقدمة من أنَّ لدى كلِّ فردٍ ما يقدِّمه، وأنَّ بإمكان كلٍّ منّا أن يفعل شيئاً لمصلحة أخيه الآن، وأنَّ معظم الناس مستعدُّون لتقديم العون إذا ما سنحت لهم الفرصة.

وتبيَّن لي كذلك أمرٌ لا نتداوله كثيراً في ثقافتنا، وهو أنه لا توجد في العالَم برامجُ حكوميةٌ كافيةٌ للاهتمام بحاجات كلِّ فرد، ولا يوجد في الولايات المتحدة ـ أغنى بلدان العالم ـ ما يكفي من مؤسسات

الغوث، ولا توجد إدارةٌ طوارئ فدرالية، كما لا يتوفر ما يفي بالحاجة من الحرس الوطني، ولا من أفواج الإطفاء أو غيرها من خدمات الطوارئ وأموال الضرائب.

على أن ثمة ما يكفي من الناس الفضلاء الطيِّبين.

لقد علَّمتنا الأعاصيرُ أننا إذا انتظرنا إحسانَ الحكومات فسننتظر طويلاً، إذ ليس في وسع الحكومات والمشروعات الكبرى أن تلبّي كلَّ الحاجات أو أن تتحرك بسرعةٍ كافيةٍ وفاعليةٍ نافذة. وقد رأينا في سنة 2005 عشرات الآلاف من الناس الذين لا يريدون الانتظار؛ فالانتظار قد يعني الموت والضرر والمعاناة لآخرين. ومن هنا كانت استجابتهم للخدمة سريعةً، وجسورُ المحبة والتعاطف فيما بينهم متينة. فقد استجاب الأفرادُ والجوار والكنائس وكأن الجميع قد خُلِقوا لمواجهة مثل هذه المواقف خصِّيصى، وهذا بالضبط ما أرمي إليه!

ما إن انتشرت أخبار إعصار كاترينا حتى انهالت المكالماتُ الهاتفية على مكاتبنا في مؤسسة «من القلب إلى القلب»، وكان على موظفينا العمل حتى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل وفي عطلة نهاية الأسبوع للردِّ على مكالماتٍ وردت من أفرادٍ يعرضون خدماتهم.

فمن المتَّصلين من يقول: «أنا خبيرٌ تقنيٌّ في ميدان الطوارئ الطبيّة، وبإمكاني المساعدة. عندي غداً مقابلة لاستلام عمل، ومع ذلك سأتخلَّف عنها وأحضر».

ومنهم من يقول: «لديَّ خبرةٌ في قيادة شاحنات المؤونة إذا كنتم بحاجةٍ إليَّ». بل إن عدداً كبيراً من السائقين المتطوِّعين حضروا بأنفسهم إلى مكاتب مؤسستنا من مواضع بعيدة جداً مثل سان فرانسيسكو بقصد عرض الخدمة ليس غير. وكان ممَّن حضروا شابٌّ من كاليفورنيا عاد توّاً من الحرب في العراق.

واتصل آخر يقول إنه قد حوَّل سيارته التي تشبه الشاحنة إلى مستوصفٍ طبّيٍّ متنقِّل، بنيَّة إرسالها إلى قريةٍ في بوليفيا، غير أنه لا يستطيع الآن وضعها في الخدمة في نيو أورليانز قبل إرسالها إلى أمريكا الجنوبية.

واتصلَ عددٌ كبيرٌ من الشركات من مثل: كوستكو وفيدكس وكمارت وشركات أدوية كثيرة، وجميعها تحمل شيئاً تقدّمه وتطمع في تقديمه على الفور لأنها أدركت مدى حاجة الآخرين إليه، فهي لا تريد الانتظار.

أما المؤسسات الاجتماعية فلا يمكن أن تتركنا وشأننا في أوقات الشدّة. ولنكن صادقين: ألسنا بحاجةٍ إلى المساعدة من غيرنا أحياناً؟ إن ذلك يستتبع تلقائياً أن نقدِّم نحن المساعدة لغيرنا أحياناً أخرى. ذلك هو السرُّ الذي يمنح حياتنا معناها ومغزاها.

ربما لا يحتاج الأمر منك إلى أن تتوجَّه بنفسك إلى منطقةٍ منكوبة، فإن من شأن حضور أعدادٍ كبيرةٍ من الناس إليها للمساعدة أن يخلق اضطراباً ويزيد المشكلة تعقيداً. غير أن مَن يذهب فعلاً إلى مسرح

الأحداث قد يلهمنا النظرَ إلى مَنْ حولنا وإدراك حاجاتهم. لقد كشفت الأعاصيرُ مشكلاتٍ كانت خافيةً أو متجاهَلةً لسنوات، أو أشخاصاً في جوارك لم تكن حاجاتهم معلومةً لك، وليس بالأمر العسير تعرُّفهم. ما عليك إلا أن تنظر من حولك وتباشر الخدمة حيثما كنتَ.

إن الاختبار الحقيقي لا يكمن فيما تستطيع فعله في أعقاب محنة، كإعصار مثلاً، بل فيما تستطيع تقديمه لأرملةٍ تليك، أو لأطفالٍ في حيِّك يقوم عليهم أحدُ أبويهم: هل لهم من حاجةٍ فتقضيها؟ أم هل تحتاج جارتك إلى من يقرأ لها؟ حقاً إنه لا يكمن في انتظار وقوع المحن أو الكوارث، بل في عدم انتظارها والمبادرة الآن؛ يكمن فيما تراه عندما تجيل النظرَ فيما هو في متناولك، فتغيِّر في سبيله أسلوبَ حياتك حيثما كنتَ.

ولا بدَّ من أن تجد بجوارك مَن تستطيع تقديمَ خدمةٍ له. وهكذا تكون أنت وجارك مثالاً يحاكي ربَّان المركب والسيدة المسنَّة وهما يتحرَّكان على شفير مجتمعهما الغارق في نيو أورليانز.

إنك تنظر إلى المركب نفسه، والمياه ترتفع وتطغى...

حان الوقت لكي تصعد المركب.